# الباب الأول

## النشأة والتكوين- قضايا العصر- السياق الحضاري

ولد فرانز فانون في عام١٩٢٥ في مدينة (فوردى فرانس) وهى عاصمة إحدى جزر المارتنيك وتوفي في إحدى مستشفيات نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية بعد معاناة طويلة مع المرض، دفن ووري الثرى حسب وصيته في أرض الجزائر العربية في نهاية عام ١٩٦١ عن عمر يناهز الستة وثلاثين عاما عاش فانون مابين الميلاد والوفاة أحداثا كثيرة لها تأثيرها على مجمل الحياة البشرية في تلك الحقبة من الزمن.

ونبدأ بالتعرف إلى ظروف النشأة والتكوين والعوامل المباشرة المؤثرة على اتجاهاته الفكرية والسياسية وعلى ممارساته، وكذلك التعرف إلى قضايا العصر في هذه المرحلة التاريخية، إلى جانب دراسة التيارات السياسية والفكرية التي تشكل في مجموعها السياق الحضاري الذي عاصره،لنرى كيف وإلى أي مدى انعكس كل ذلك على مسيرته وعلى أفكاره وأفعاله وإلى أي مدى كان تعبيرا عن المشكلات المطروحة في عصره وكيف استطاع التصدي لها،

# المبحث الأول

## ظروف النشأة والتكوين

ويلزم ابتداءً التعرف إلى الظروف التي صاحبت النشأة و التي كان لها تأثيرها على توجه فانون المستقبلي والتي أوصلته إلى مكانه، ثم نتعرف على العوامل التي ساهمت في تكوينه على مدى مسيرته في الحياة ،ونقف بعد ذلك على خبراته الواقعية وتجاربه التي خاضها والتي تعتبر منعطفات هامة في حياته والتي من الأهمية إبرازها لما لها من دلالات،وأخيرا نصل إلى تبين سماته الشخصية وذلك على النحو التالي:

### ظروف النشأة:

خضعت جزر المارتنيك[1](التي ولد فانون في إحدى عواصمها) للاحتلال الفرنسي منذ عام ١٦٢٥ وكانت هذه الجزر موقعا من مواقع جلب العبيد الأفارقة- منذ بداية هذه التجارة –للعمل في مزارع قصب السكر وذلك لفناء سكانها الأصليين، ومن المعروف أن السياسة الفرنسية أتبعت في مستعمراتها سياسة الاحتواء و الاستيعاب ،فقامت بمنح سكان الجزر المواطنة الفرنسية وعملت على خلق نخبة من الأهالي مكونة ما يمكن أن يسمى (بورجوازية سوداء)تتشكل أساسا من أبناء الطبقة الوسطى التي تسعى بدورها للاندماج والذوبان في الإطار الفرنسي.وإلى هذه الفئة كانت تنتمي أسرة فرانز فانون، فكان مولده من أبوين ميسورين الحال ،ينتميان إلى الشريحة العليا من هذه الطبقة (المتوسطة) فكان واحدا من ستة أخوة،عمل أبوه مفتشا في الجمارك، ساعدت الظروف الاجتماعية لعائلته من متابعته دروسه حتى تخرج من جامعة ليون بفرنسا متخصصا في دراسة الطب النفسي، وإذا كانت ظروف النشأة –أي نشأة– ترتبط إلى حد كبير بظروف المكان والزمان وبالأسرة التي ينشأ الإنسان في ظلها فإن ذلك قد انعكس على فانون على النحو التالي:

(١) وتعرف أيضا باسم جزر الأنتيل، وهي تتشكل من عدة جزر صغيرة ومتوسطة تتابع في خط يقع بين أمريكا الشمالية والجنوبية قريبا من قناة بنما.

**أولا :ظروف المكان :**

يرتبط المكان عند البعض باعتباره من قبيل الصدفة على اعتبار أن الإنسان لا يختار متى ولا أين يولد، ولكن يظل للمكان في كثير من الأحيان تأثيره الواسع المدى في التكوين الشخصي للإنسان ويذهب د جمال حمدان في ذلك إلى حد توصيفه لدور المكان "بالعبقرية"،حينما تحدث عن عبقرية المكان في سياق دراسة له عن شخصية مصر .وهذا التوصيف وإن كان يرتبط بخصوصية ما لدور الموقع في مصر، إلى أنه ينطبق وبدرجات مختلفة على أماكن أخرى ،فلكل مكان خصوصية تنبع من جغرافيته وظروفه التاريخية ،ويتبدى دور المكان هنا على النحو التالي :في أثناء الحرب العالمية الثانية وبعد هزيمة فرنسا أمام قوات النازي وكان الأسطول البحري الفرنسي موجودا وقتها في المحيط الأطلسي قبالة جزر المارتنيك و لما لم يستطع البحارة العودة إلى فرنسا ، توجهوا إلى الجزر،وكان عدد سكان الجزر في ذلك الوقت لا يتعدى الألفين ولم تكن تعرف أشكال التعصب العنصري الصارخ، وبوصول البحارة الفرنسيين ارتفع العدد إلى نحو عشرة آلاف،ومارس الوافدون الجدد وهم من البيض أشكالا من التمييز والتعصب العنصري لم يكن المواطنون من أهل الجزيرة يعرفونها من قبل، وكانت هذه التجربة هي الأولى من نوعها والتي عايش فيها فانون أشكال التعصب العنصري والتي جعلته يؤكد زنوجته ويصرخ بها في وجه البعض الذين توهم ذات يوم أنه مثلهم تماما [1].

وفي المارتنيك التحق فانون بمدرسة الليسيه حيث تتلمذ على يد إيمي سيزير وكان سيزير شاعرا ومن رواد حركة الزنوجة إلى جانب ليوبولد سنجور،وأصبح فيما بعد من القادة السياسيين لشعبه وتجدر الإشارة إلى أن فانون اختلف لاحقا مع سيزير في بعض مواقفه السياسية إلا أن تأثيره عليه كان مؤكدا والقارئ لكتابات فانون وما يلمسه فيها من نفس شعري يجد تفسير ذلك في لقائه بسيزير وتلمذته على يديه ،هذا إلى جانب تأثيره الفكري عليه ،وفي هذا الصدد فان تأثير سيزير على فانون يمكن تلمسه على أكثر من مستوى ،فإلى جانب تأثره بأسلوب كتابته الشعرية ،فقد تأثر فانون وتفاعل مع أفكاره وخاصة فكرة الزنوجة وتمجيد قيم الريف على النحو ي

(١) المرجع السابق، ص١٧.

**الزنوجة** : وكان لإيمي سيزير دور بارز في إحيائها وذلك إلى جانب مفكرين أفارقة آخرين وعلى رأسهم الكاتب والسياسي الأفريقي ليوبولد سنجورو، وتفاعل فانون مع تيار وفكر الزنوجة سلبا وإيجابا هو أحد علامات تأثير سيزير عليه في هذا الشأن ،وكان سيزير من جانب آخر من المعجبين بفانون فكتب مثنيا عليه قائلًا: "إن كتاب بشرة سوداء وأقنعة بيضاء ، هو الكتاب الحاسم بـ شأن العواقب الإنسانية للاستعمار والعنصرية في حين أن كتابه معذبو الأرض يعتبر مفتاح عملية إزالة الاستعمار"[1].

تمجيد قيم الريف ودور الفلاحين: كان لكتابات السياسيين الزنوج اللذين أعجب بهم فانون في المراحل الأولى من تكوينه الفكري وفي المقدمة منهم إيمي سيزير، دور في اتجاه فانون إلى تعظيم دور الفلاحين في الثورة، هذا بالطبع إلى جانب خبرته العملية المستقاة من الدور الذي قام به الفلاحون في الثورة الجزائرية[2] ، والنظر إليهم باعتبارهم هم الطبقة الثورية الوحيدة القادرة على القيام بالثورة ومواصلتها دونا عن الطبقات الأخرى، فهي الطبقة الوحيدة التي لن تخسر شيئا بالثورة بل تكسب كل شيء[3] .

## ثانيا : الأسرة

لو لم يكن فانون من أبوين ميسورين الحال ينتميان إلى الشريحة العليا من الطبقة المتوسطة،ما كانت ظروفه العائلية لتمكنه من متابعة دراسته حتى وصوله إلى أرقى درجات التعليم في جامعات فرنسا ودارسا للفلسفة في نفس وقت تخصصه في دراسة الطب النفسي، ولما تعرف على الثقافة الغربية ولا احتك بالحضارة الأوروبية ، بما وفره له ذلك من إمكانات النماء الشخصي ومن تحقيق نجاحات شخصية. والمتتبع لسيرة حياة فانون يرى أن تأثير الأسرة عليه ينحصر في توفير الإمكانيات المادية التي ساعدته على النحو الذي سبقت الإشارة إليه.

(1) David Caute, **Fanon** (London: Fontana ,1970) P.52.

(٢) محمد المليلي، م س ذ، ص٥٢.

(٣) فانون، سامي الدروبي وجمال الأتاسي (مترجم) معذبو الأرض (بيروت : دار الطليعة، ١٩٧٠)، ص٦٣.

ومن ناحية أخرى فلقد كان بإمكان فانون بفضل سجايا وقوى شخصية يتمتع بها ويفضل ثقافة اكتسبها أن يحقق نجاحات فردية لكنه لم يسع لذلك ولا سعى للاستفادة من مهاراته على المستوى الشخصي وبالتالي" لم يلحق نفسه بصفوف النخبة المارتنيكية السوداء وكان الباب مفتوحا على مصراعيه أمامه للالتحاق بصفوف هذه النخبة"[1] ويؤكد دافيد كوت وهو أحد دارسي فانون على هذا المعنى بقوله: "إنه من الممكن تحديد الفئة أو الطبقة التي ينتسب إليها فانون من خلال ظروفه ومحيطه ولكن هذا التحديد لا يمكن أن ينسحب على أفكاره وحياته والإنسان الذي حول نفسه إليه ،فكان هناك دائما مجال للاختيار "[2]

## ظروف التكوين :

من المسلم به أن وعى الإنسان يتشكل ويتكون ويتطور عبر كل مراحل حياته من خلال الاختبارات التي يواجهها والخبرات التي يكتسبها، وبقدر ما تتسع مساحة هذه الاختبارات وتتنوع، تتسع معها خبراته وتتنوع هي الأخرى، ويكون الإنسان أوسع وأرحب أفقا وأقدر على تلمس ما يعجز الآخرون عن فهمه وإدراكه، وبهذا المعنى فقد توفرت لفانون ظروف خصبة وغنية وتجربة حياة مفتوحة على كل الاحتمالات، ولعل هذا ما يفسر حجم عطائه الفكري والعملي ويفسر أيضا الصدى الذي أحدثته أعماله الفكرية وما وجدته من تقبل واسع، وباستعراض ظروف التكوين والخبرات المعاشة يتبدى الأثر الكبير الذي أحدثته في تشكيل فكره ووعيه وتطوره في آن واحد.

### أولا : دراسته للطب النفسي :

درس فانون الطب في مدينة ليون بفرنسا وتخصص في الطب النفسي، وعمل بعد تخرجه في عام ١٩٥١ في مستشفي سان- البان للأمراض العصبية لمدة خمسة عشر شهرا،تعرف خلالها على حالات مرضية عديدة ، وعمل مع د. توسكيل وهو

(1) David Caute,**op.cit.**, P8
(2) Idem

طبيب إسباني الأصل، في أثناء عمله بهذه المستشفي عالج فانون المرضى من الجزائريين والمهاجرين الأفارقة الفقراء و بمتابعة مرضاه وبما يتمتع به من حس ونزعة إنسانية استطاع أن يكتشف السبب الأساسي وراء معاناتهم وهو مرض "الغربة" أو ما يعرف بمرض الاقتلاع من الجذور، سافر فانون بعد ذلك للعمل في مستشفي بليدة بالجزائر رئيسا لقسم الطب النفسي بها، وهناك اصطدم بواقع المرضى الجزائريين واكتشف العلاقة بين الاستعمار والمرض النفسي وأنها تقوم على:

ما يؤديه الاستعمار دائما من خلق للمعاناة الإنسانية وتقسيمه العالم إلى عالم مضطَهِدين ومضطهِدين، عالم مستغَلين ومستغِلين "إن الوضع الاستعماري يتميز بأنه يفرض عى العالم انقساما ثنائيا"[1] ، واكتشف كذلك العلاقة بين الاستعمار والعنف الملازم له ، وكيف أنه "يضيع الإنسان ويشوه الطبيعة الإنسانية"[2] ، وبالتالي يفاقم من مضاعفات المرض النفسي.

استحالة علاج المرض النفسي في ظل وجود النظام الاستعماري، فالاستعمار باستخدامه للقهر والعنف يخلق ، ويفاقم المرض النفسي، ولذلك فالتخلص من الاستعمار هو ضرورة لتوفير الشرط الموضوعي لإمكانية شفاء المرضى.

ودراسة فانون للطب النفسي مكنته من التحليل العميق للظاهرة الاستعمارية من الداخل، ومكنه التفسير النفسي لهذه الظاهرة من التوقف أمام التأثيرات التي يحدثها الخضوع للمستعمر على نفسية المستعمَرين، والدور الذي يقوم به المستعمِر في مسخ المستعمَرين وتيسير خضوعهم له.

ويرى كوت "أن من أعظم حسنات فانون على الدوام أنه يعزو الحالة النفسية للفرد إلى مجتمعه دون أن يهمل النظر إلى الفرد نفسه "[3] ، ويظهر اعتقاد فانون بأن" توفر السلامة الاجتماعية شرط لتوفر السلامة العقلية"[4] ، وهذا الاعتقاد يبدو واضحًا في رسالة الاستقالة من عمله في مستشفي بليدة والتي قدمها إلى الوزير الفرنسي للمقيم"[5] ،وفي صلب نص هذه الرسالة تتضح رؤية فانون لدور الطب

(١) فانون، م س ذ، ص ٥٠.
(٢) المرجع السابق، ص٦.
(3) David Caute, Op.cit., P.37.
(4) Ibid., P.39.
(٥) فانون، محمد المليلي (مترجم) من أجل أفريقيا (بيروت : دار الطليعة، ط١، ١٩٦٦) ص٣٥ –ص٣٨

النفسي "من أنه هو الأداة التي تهدف إلى تمكين الإنسان من تجاوز غربته في البيئة المحيطة به". وهكذا يتضح ما لدراسة فانون للطب النفسي من أثر عميق في تكوينه الفكري وعلى فهمه ورؤيته للاستعمار وعلى حتمية التخلص منه وضرورة القضاء عليه،كما كان لهذه الكتاب أيضا تأثيرها على كل إنتاجه الفكري اللاحق وعلى ممارساته العملية على النحو الذي سيتضح أكثر في ثنايا هذه الكتاب ويمكن القول إجمالا "بأن التزام فانون الثوري نشأ أصلا بشكل فطرى ومنطقي من ممارساته المهنية وزادت راديكاليتها من خلال التجربة الشخصية في النضال التحرري الجزائري"[1].

## ثانيا : علاقاته بشخصيات أوروبية

في أثناء دراسته للطب في فرنسا كان" فانون يقوم في ذات الوقت بدراسة للفلسفة ويقرأ لكيركيجارد وهيجل و ماركس ولنين وهيدجر وسارتر ...الخ "[2] ،والتقى في هذه الأثناء بعديد من الشخصيات التي تركت بصماتها على تفكيره وعلى رؤيته وتوجهاته وترصد الكتاب ثلاثة من هؤلاء المفكرين.

### ١- جان بول سارتر:

وهو المفكر المرموق والفيلسوف الأشهر في تلك المرحلة، بدأ وجوديا وتطور فكريا وتجاوز الفلسفة الوجودية وأصبح في وقت لاحق ماركسيا . وكانت سنوات دراسة فانون في فرنسا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية قد تزامنت مع الانتشار الكبير لأفكار سارتر، ويرى البعض ،أن فانون" مدين لسارتر بالشيء الكثير" [3] ، وأنه" لم يكن لكاتب من النفوذ لدى فانون ما كان لسارتر"[4] ، وأن فانون تأثر في تحليله للعنصرية وكذلك فيما يتعلق بفكر الزنوجة بأفكار سارتر إلى الحد الذي جعله يذكر "أن كتابات فانون هي إلى حد كبير صدى لمفاهيم سارتر"[5] ، وبصرف النظر عن

(1) Renate Zahar, **Frantz Fanon : colonization@ Alienation** (new York : Monthly Review Press ,1974) P×1.

(٢) محمد المليلي، م س ذ، ص٢٩.

(3) David Caute, **Op.cit**, P.35.
(4) Ibid., P.82.
(5) Ibid., P.35.

مدى دقة هذا التقييم أو حجم المبالغة فيه ، فإنه يحمل معنى التأثير الواضح لسارتر على أفكار فانون وفي هذا السياق فإنه من المهم الإشارة إلى أن سارتر نفسه هو الذي كتب مقدمة كتاب فانون "معذبو الأرض" ويقوم ذلك دليلا على العلاقة الوثيقة التي جمعت بين الرجلين.

**٢- فرانسيس جونسون :**

وفرانسيس جانسون هو أحد مريدي سارتر وهو الذي كتب مقدمة النسخة الفرنسية من كتاب فانون الأول "بشرة سوداء وأقنعة بيضاء" والذي صدر في عام ١٩٥٢، ومكن فانون من تبوأ مكانة محترمة بين المثقفين الفرنسيين ، و لجانسون كتاباته عن الجزائر وعن ما سُمى (مشكل عمال شمال أفريقيا ) ويكون من السهل استنتاج أن صداقة فانون لجانسون و قراءته لما كتبه عن الجزائر قد ساعدته كثيرا في التعرف إلى الواقع الجزائري قبل عام ١٩٥٤، مما يحتمل أن يكون أحد الأسباب التي دعت فانون إلى التفكير في السفر لاحقا للعمل في الجزائر[١].

**٣- فرانسوا توسكيل :**

وهو الطبيب الذي عمل معه فانون في مستشفي سان-البان، وهو من أصل إسباني، وكان معاديا للنظام الفاشي للجنرال فرانكو، ويمتلك معرفة وعلما واسعا بأساليب العلاج الإجتماعي ويرى أن العلاج النفسي يرتبط ارتباطاً وثيقا بالبيئة المحيطة بالفرد فكان يعمل دائما على تأهيل مرضاه للتكيف مع البيئة المحيطة والتعامل معها، "وشكلت معرفة فانون بتوسكيل تحولا حاسما في حياته سواء كان ذلك على صعيد الطب النفسي أو على صعيد التزاماته اللاحقة واتضحت لديه نقطة التقاطع بين الجسدي والنفسي والتاريخي "[٢].

وتبدو آثار هذه المدرسة واضحة في موقف فانون وتقديمه لاستقالته من منصبه في مستشفي بليدة للأمراض النفسية لاقتناعه باستحالة علاج المرضى

(١) محمد الميلي، م س ذ، ص٥٧.

(٢) فانون ، معذبو الأرض، م س ذ، ص١١.

الجزائريين في ظل وجود ظروف بيئية واجتماعية غير مناسبة وبسبب وجود نظام استعماري يفرض العنف والقهر على الأهالي، وتوصله إلى النتيجة الحاسمة بضرورة القضاء على الاستعمار أولا إذا ما أردنا للإنسان إن يتحرر ذاتيا.

## ثالثا: المؤثرات الفكرية:

درس فانون الفكر الغربي واستوعبه بكل مدارسه، كما ارتبط إنسانيا بأبرز رموزه المعاصرة له، ويلاحظ هنا تداخل الصداقات والعلاقات الشخصية مع المؤثرات والمدارس الفكرية التي تأثر بها فانون، وكان لمجلة "بريزنس أفريكان "والتي تأسست في باريس في عام ١٩٤٧ وأشرف على تحريرها عدد من اليساريين الفرنسيين ومن بينهم أندريه جيد، البير كامو، وجان بول سارتر تأثير عميق في فانون "فقد اقتبس منها الشيء الكثير في كتابه بشرة سوداء وأقنعة بيضاء"[١] وذلك حسب ما أورده كوت في دراسة له عن فانون، ويرى أيضا " أن فانون في كتابه الأول (بشرة سوداء وأقنعة بيضاء) تعرض لأفكار هيجل و ماركس .... سارتر و ميرلو بونتى .....، وفيما يتعلق بالمحللين النفسانيين فإن فانون يؤثر الكبار منهم مثل فرويد و أدلر، فقد ظفرت دراسات جميع هؤلاء باهتمامه البالغ "[٢] ويلاحظ أيضا " أن تطور أفكار فانون يوازى من بعض الوجوه تطور أفكار ماركس ولكنه أشد التصاقا بخط تطور أفكار سارتر "[٣] وكذلك" فإن مفهوم العنف عند فانون مستمدٌ من هيجل عبر فلسفة سارتر "[٤].

من جانبه يرى الميلى "أن الأصول الغربية لتفكير فانون ،هو أحد سببين رئيسين للصدى الكبير الذي حققته كتابات فانون في الغرب"[٥]، ومسألة الأصول الغربية لتفكير فانون وما يمكن أن تستدعيه إلى الذهن من معنى سلبي، على اعتبار أن الغرب هو نفسه الذي مارس الاستعمار بأبشع صوره وهو الذي قام بنهب المستعمرات وأعاق تطورها الطبيعي وعمل على تجميد واقعها الاقتصادي،

(1) David Caute, **Op.cit.**, P.28.
(2) Ibid, P.32.
(3) Idem
(4) Renate, Zahar, **op.cit.**,P.78.
(٥) محمد الميلى ، م س ذ، ص٣٧.

الاجتماعي، والثقافي ،إن لم يكن قد قام بتدميره بالكامل، مما أدى إلى حالة التخلف الذي عانته المستعمرات،ومما يعزز من حالة اللبس التي تستدعيها إلى الذهن مقولة " الأصول الغربية" رؤية متميزة ومثيرة للجدل طرحها أستاذ دكتور إبراهيم نصر في محاضرة ألقاها أمام الجمعية الأفريقية للعلوم السياسية في ديربان في مؤتمرها الرابع عشر في الفترة من ٢٦-٢٨ يونيو ٢٠٠٣ بعنوان" في نقد العقل والممارسات الغربية – نحو رؤية جديدة لتنمية أفريقيا" ويوجز هذه لرؤية في (أن المتأمل في مجمل التراث الثقافي الغربي سواء في ذلك فكره السياسي أو تقاليده أو أعرافه يدرك دونما عناء أن العقل الغربي هو عقل فصل من جانب وهيمنة من جانب آخر)[1].

ومن جانبنا نرى أن إزالة هذا اللبس أو التناقض يكون ممكنا إذا نظرنا إلى الغرب وإلى الفكر الغربي ليس على أنه كتلة واحدة ،فهناك الشعوب توجد إلى جوار الأنظمة، والأفكار نفسها تتراوح من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار،فالغرب الذي قام نظامه السياسي و الاقتصادي بالممارسات الاستعمارية المشينة، هو نفسه وفي مراحل أخرى ومختلفة من تطوره التاريخي الذي أفرز أفكارا ومدارسًا فكرية تقف على الشاطئ الآخر وليس أدل على ذلك من ظهور الأفكار الاشتراكية الثورية من داخل هذا المجتمع وقلبه،

هذا إلى جانب أن فانون لم يكن مجرد متلقي لمسلمات هذا الفكر على تنوعه، ولم يكن أيضا من نمط المثقفين الذين يمكن استيعابهم، وإنما هو في جدل دائم ومستمر مابين الواقع والفكر، وموقف فانون من اليسار الفرنسي واختلافه معه أثناء حرب التحرير الجزائرية وانتقاداته لليسار الفرنسي برغم ما كان من صلة قوية ووثيقة بينه وبين هذا اليسار، وكذلك خلافه مع إيمي سيزار في مرحلة لاحقة بسبب موقفه من استقبال أندريه مالرو(الوزير الفرنسي الديجولي) ولموافقته على التصويت بنعم لصالح الاستفتاء الديجولي الشهير على ضم جزر المارتنيك لتكون جزءا من فرنسا، وانضمام فانون فيما بعد وانتمائه للثورة الجزائرية فيما اعتبر أنه خلع نهائي للمواطنة الفرنسية، ذلك يؤكد أن فانون وإن تأثر بالمدارس الفكرية الغربية إلا أن ذلك كان في إطار تفاعل وجدل وحركة وضمن إطار ناقد وقدرة على الفرز وفي إطار استقلالية

(١) د. إبراهيم نصر الدين "في نقد العقل والممارسات الغربية : نحو رؤية جديدة لتنمية أفريقيا" آفاق أفريقية، (القاهرة: الهيئة العامة للاستعلامات، السنة الرابعة ،العدد ١٥) ص ص٤-٧

فكرية تامة.

وفي نفس السياق يقرر أحد الباحثين في دراسة له "..أن فانون كان مدركا في صميم عقله،تعليمه،ثقافته وخبرته في الحياة بأنه قد تأثر وبعمق بالمركزية الأوروبية ...ولكنه في داخل تراث القمع والهيمنة للمركزية الأوروبية كان قادرا على التمييز بدقة بين ما هو ضروري وغير ضروري لفهم الحاضر ولبناء مستقبل أفضل ...وكان قادرا على استخدام مفاهيم المركزية الأوروبية ضد ولإدانة هذه المركزية نفسها"[1].

## تجاربه الشخصية وخبراته الواقعية:

على قصر عمر فانون وتنوع الاختبارات التي تعرض لها، فإنه يمكن رصد تجربتين في حياته كان لهما تأثيرهما البارز على أفكاره وتوجهاته وعلى تطور هذه الأفكار والتوجهات ومع إدراك صعوبة اقتطاع تجربة أو أكثر من سياقها وتسليط الضوء عليها، ذلك أن مجمل التجارب المعاشة تشكل سبيكة واحدة، كل خبرة فيها هي سبب ونتيجة لخبرات أخرى وهكذا في عملية جدل مستمرة، إلا أنه وفي ذات الوقت من الممكن رصد ما يعتبر خبرات وتجارب حاكمة أسهمت بنصيب أوفر في تشكيل وعي ووجدان فرانز فانون، وهذا ما نحاول رصده، ففي هذا السياق يقف حدثان بارزان لهما دلالتهما كما كان لهما تأثيرهما الواضح على حياته وأفكاره.

**أولهما:** تطوعه للقتال إلى جانب جيش فرنسا الحرة ضد قوات الغزو النازي.

**وثانيهما:** انضمامه للثورة الجزائرية والعمل ضمن صفوفها ومع كوادرها.

## أولا : الالتحاق بجيش فرنسا الحرة:

لم يكن فانون قد تجاوز السابعة عشرة من عمره ،حين غادر جزر المارتنيك، بعد هزيمة فرنسا في الحرب العالمية الثانية أمام قوات النازي وانضم إلى قوات الحلفاء

(1) José da Mota-Lopes," Re-Reading Frantz Fanon: Language, Violence, and Eurocentrism in the Characterization of Our Time"
**humanarchitecture:journalof the sociologyof self-knowledge**
( Boston: Okcir Press,VSpecial,Double-Issue,Summer 2007) p.57.
http://www.okcir.com/Articles%20V%20Special/JoseMotaLopes.pdf

تحت قيادة الجنرال ديجول مقاوما للاحتلال الألماني لفرنسا ومنخرطا في صفوف المقاومة ضد النازية والفاشية وينسب إلى فانون قوله آنذاك "أنا لست على وجه الأرض لأدافع عن السود فقط وإنما عن كل مظلوم ومضطهد"

ومن البديهي أن تجربة الحرب، هي من أعمق التجارب التي يعيشها الإنسان، وتترك آثارا قوية على كل من وجدانه وفكره، وفيما يخص فانون، فقد حملت هذه التجربة له وعيا مبكرا في أكثر من اتجاه. ففيها عايش واقعا من الظلم وعدم المساواة والاستعلاء العنصري الذي مارسه الجنود الفرنسيون البيض على غيرهم من الملونين، فأثناء انخراطه في الجيش الفرنسي فوجئ بأن هناك كتائب تتشكل من الفرنسيين البيض وأخرى من الهنود الغربيين السود والمفترض أنهم مواطنون فرنسيون وأن الجنود الأفارقة السود قد عزلوا عن القوات الفرنسية،والمفارقة أن ذلك كان يتم في نفس الوقت الذي كان الجيش الفرنسي يواجه فيه النازية الألمانية بأفكارها عن النقاء العرقي.

وفانون وهو الأسود الذي جاء إلى فرنسا ليدافع مع الفرنسيين عن قضيتهم، فوجئ بسلوكهم العنصري، فتكرست معاناته من الممارسات العنصرية مما ساهم في تشكيل وعيه المبكر بوضع الإنسان الأسود ونظم العبودية وضرورة تحرير الإنسان من كل الأغلال والقيود ويذكر كوت "أن فانون كانت تتملكه مرارة التمييز العنصري، وفي مطلع شبابه كان قد توهم أن في وسعه التغلب على حاجز اللون مستندا إلى ثقافته وطاقاته الشخصية ،وهكذا تطوع في أثناء الحرب للخدمة بالجيش الفرنسي، وبدأ يدرك ويحس بأن الزنجي بصرف النظر عن مستواه العلمي والثقافي فهو في نظر لفرنسيين زنجي قبل أي شيء آخر،وهو في مرتبة متدنية [1].

والجدير بالذكر أن فانون كجندي في الجيش الفرنسي تلقى تدريباته القتالية الأولى في مدينة بجاية الجزائرية، وقد تكون هذه الخبرة وراء قبوله العمل بمدينة بليدة بالجزائر فيما بعد، (لسبق تعرفه إلى الجزائر الأرض والشعب) وتجربة الحرب هذه لابد وأن تكون قد أسهمت في تشكيل فهم فانون للعنف بعد أن مسه هذا العنف بعمق في لحظة فاصلة من حياته، لذلك لم يكن غريبا أن يتخذه موضوعا في كتاباته، كما كانت معايشة الاستعلاء العنصري بدورها مصدرا لكتاباته الأولى، وفي تركيز وإيجاز

(1) David Caute, **Op.cit.**, P.9

شديدين لخبرة فانون من هذه التجربة يمكن القول أنه اكتشف أثناءها الممارسات العنصرية الشائعة [1] كما اكتسب إلى جانب ذلك ثقافة المقاومة والتي قد تكون هي البداية الجنينية في وعيه والتي ترجمت نفسها فيما بعد بانضمامه للثورة الجزائرية.

## ثانيا :انضمامه إلى الثورة الجزائرية :

تعرف فانون إلى الجزائر في البداية يوم أن تلقى تدريباته القتالية أثناء تطوعه في جيش فرنسا الحرة في مدينة بجايه الجزائرية ، وتعرف عليها فكريا من خلال قراءاته لكتابات فرانسيس جانسون عن الجزائر [2]، كما تعرف عليها إنسانيا من خلال خبرته المستقاة من علاج الجزائريين الفقراء في فرنسا، ويتلقيه عرضا للعمل في مستشفي بليدة للأمراض النفسية رئيسا لقسم الطب النفسي بها وذلك في عام ١٩٥٣ بدأت منذ هذه اللحظة علاقته الأساسية بالجزائر والتي مهدت فيما بعد لالتحاقه بصفوف الثوار الجزائريين، ذلك أن تجربة الانتقال إلى الجزائر واحتكاكه بالجزائريين أتاح له أن يتعرف على الكثير من الحقائق التي كان يجهلها مما وجه أبحاثه وقراءاته وجهة جديدة ظهرت آثارها في كتاباته [3] ومنحته أيضا درجة كبيرة من الوعي بالممارسات العنيفة والدموية التي كان الاستعمار الفرنسي يمارسها على الجزائريين المستعمرين، ورأى كذلك المعاملة القاسية التي كان يعامل بها المرضى الجزائريين ،ومن دراسته لمرضاه توصل فانون إلى قناعة بصعوبة شفاء المرض النفسي في ظل نظام استعماري تعسفي وأنه لكي يمكن مداواة المرضى الجزائريين بشكل مقبول فيجب إنهاء الاستعمار أولا وإنهاء كل أشكال العسف والقهر الملازمة له ، وانتهى فانون من ذلك إلى قناعة بأن استمراره في العمل الطبي والعلمي يصرفه عن الواجب الأكبر الذي يصغر إزاءه كل الواجبات الأخرى، فأقدم في نهاية عام ١٩٥٦ في تصرف لافت وذى دلالة على تقديم استقالته من العمل في مستشفي بليدة محتجا على ما لمسه ورآه، وبعدها وفي خطوة أبعد قرر فانون الانضمام إلى جبهة التحرير الوطني الجزائرية عاملاً في صفوف الثوار الجزائريين ومساهما نشطا في فعاليات

(١) محمد المليلي، م س ذ، ص ٦١.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٣) فانون، من أجل أفريقيا، م س ذ، ص ٦

وأحداث الثورة وبذلك يكون فانون قد وصل إلى نقطة اللا عودة ، قاطعا كل صلة له بفرنسا(الوطن الأم) وخالعا عن نفسه المواطنة الفرنسية في ذات الوقت و بانخراط فانون في فعاليات الثورة الجزائرية تمكن من دراسة المجتمع الجزائري ورصد التحولات الأساسية التي أحدثتها الثورة والكفاح المسلح في بنية الشعب ونسيجه الاجتماعي ،وضمن ذلك في كتابه المهم "خمس سنوات على الثورة الجزائرية"والذي صدر أحيانا تحت عنوان "سوسيولوجيا الثورة"

وبانضمام فانون للثورة الجزائرية يمكن القول أنه" وجد فيها ما كان ينشده، فقد كان ينشد ميدانا يؤدى فيه العمل الذي تفرضه عليه النتيجة التي توصل إليها، ميدان يسمح له أن يخوض معركة كلية ضد الاستعمار بجميع أشكاله الظاهرة والخفية الحسية والمعنوية، فقد كانت الثورة الجزائرية هي ميدانه المفضل، وكان فانون وهو"يقطع كل صلة له بماضيه .....يتهيأ؛ لأن يصبح جزائريا ..لأن يندمج كليا في الثورة الجزائرية؛ لأنه وجد في هذه الثورة ضالته ، أنها هيأت له فرصة الانتماء إلى وطن أفريقي، يشبع نهمه للنضال وحماسه للعمل، ومن ثم أصبح يشعر بأنه ارتقى إلى مرحلة أسمى من مراحل العمل النضالي "[1].

وفي نطاق الثورة الجزائرية تم أول اتصال لفانون بأفريقيا السوداء في نهاية عام ١٩٥٨ بتعيينه عضوا ضمن الوفد الجزائري إلى المؤتمر الأفريقي المنعقد في أكرا عاصمة غانا وهناك تعرف على نكروما ..ولومومبا..كما تعرف على فيليكس موميه"[2].

وللثورة الجزائرية والممارسة الفعليةِ في إطارها دور كبير في إنضاج أفكار فانون للدرجة التي يمكن التمييز فيها بين مرحلتين من مراحل تطوره الفكري " فهناك عهدان منفصلان عن بعضهما في تفكير فانون : عهد ما قبل الثورة الجزائرية ، وعهد الثورة الجزائرية "[3].

وباندماجه في الثورة اندماجا كلياً كتب فانون كتابات عديدة هي خلاصة ملاحظاته على المجتمع الجزائري كما انه درس البنية الاجتماعية الجزائرية ولمس كيف

(١) محمد الميلي، م س ذ، ص ١٠٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٥.
(٣) المرجع السابق، ص ١٣٠.

أن هذه البنية تأثرت وتغيرت وتطورت جذريا مع تطور مراحل الثورة المسلحة ، فظهر مؤلفه "خمس سنوات على الثورة الجزائرية" أو "سوسيولوجيا الثورة" وكتب عدة مقالات في صحف الثورة نشر بعضها فيما بعد في كتابه "من أجل أفريقيا".

ولقد اكتسب فانون بعد أن أوكل إليه مهمة تمثيل الثورة في كافة المحافل الأفريقية،خبرة في التعامل مع حركات التحرير الأفريقية، وانتقاله بسبب هذه الخبرة إلى ما اعتبره البعض مرحلة التفكير الأممي وهذه المرحلة هي التي قدم فيها أهم كتبه " معذبو الأرض".

وللتحدث عن فانون والثورة الجزائرية، فذلك عنوان عريض يغطي مساحة بأكملها ،وفي هذا المجال نكتفي بالقول، أن تجربة الانتقال والعمل في الجزائر والانضمام للثورة هي من الملامح الأساسية في حياة فانون وكان لها دورها الرئيسي في تكوينه وتطوره، ونظراً للدور المهم الذي كان يقوم به فقد حظي فانون باحترام بالغ في أوساط المفكرين والثوريين الجزائريين وعنه قال بن بيلا: " لم يكن فانون رفيقا في المعركة فحسب ولكنه كان مرشدا وموجهًا ؛ لأنه ترك لنا من إنتاجه الفكري و السياسي ما هو ضمانة للثورة الجزائرية"[1].

وفي حفل تأبينه ،ذكر أحد قادة جيش التحرير الجزائري " ..كان فانون مخلصا، ثار ضد الاستعمار والعنصرية ومبكرا منذ ١٩٥٢ وكان له دور نشط في حركات التحرير"[2].

ومن كل ما سبق بتنين الدور الكبير الذي لعبته الثورة الجزائرية في حياة فانون الفكرية والعملية.

**السمات الشخصية:**

يمكن التعرف على صفات أي شخص وملامحه من خلال ما يقوله أو يكتبه عنه الآخرون ومن تتبع آرائه الشخصية حول مختلف القضايا و مواقفه العملية واختياراته في الحياة، وبهذا المعنى فإن معظم من كتبوا عن فانون وتعرفوا عليه

(١) فانون، معذبو الأرض ، م س ذ، ص ١٤.

(2) David Caute, **Op.cit.**, P.34.

شخصيا وعملوا معه يشيدون به، وأحد هؤلاء محمد الميلي وهو مثقف وسياسي جزائري عمل مع فانون في صحيفة المجاهد الجزائرية وهي أحد المنابر الإعلامية لجبهة التحرير الوطني الجزائرية، كتب عن فانون واصفا إياه "بأنه من صنف المثقفين الذين يتخذون المواقف القصوى ولا يهضمون المواقف المترددة، وأن الظروف التي تحكمت في حياته قد هيأته لهذه الجذرية وقال عنه أيضا "أنه عُرف بدقة الملاحظة ورهافة الحس" وعن نزعته الإنسانية يقول "إن موقف فانون من العنصرية وعنفه ضدها هو موقف إنساني"[1] وأنه "كان مؤمناً بالإنسان وكان يمجده كقيمة.... ولا شك أن هذا الإيمان قد هيأ فانون؛ لأن يحتضن قضية الإنسان في الجزائر".

ومن كتابات فانون نفسه نجد ما يعبر عن هذه النزعة فهو الذي كتب قائلا "لا أريد أن أتغنى بالماضي على حساب الحاضر والمستقبل، أنا أريد شيئا واحدا. نهاية استعباد الإنسان للإنسان، واستعباد الآخر لي، ذلك سيضمن لي أن أكتشف وأن أجد الإنسان في أي مكان يكون "[2] وفي خاتمة كتابه معذبو الأرض يقول: "لا يجب أن نفرض على الإنسان إيقاعا سرعان ما يفسده ويفقده سلامته، يجب ألا نتذرع بحجة اللحاق فنزعزع الإنسان وننزعه من ذاته وأن نحطمه ... نحن لا نريد اللحاق بأحد، ولكننا نريد أن نمشي طوال الوقت، ليلا ونهارا، في صحبة الإنسان، في صحبة جميع البشر، وعينا أن نجعل القافلة تسير متراصة وغير متباعدة وإلا لم يستطع أي صف من الصفوف ان يرى الصف الذي تقدمه"[3].

وعن سجايا فانون يقول دافيد كوت: " لقد كان الباب مفتوحا على مصراعيه أمام فانون ليلتحق بصفوف النخبة السوداء ولكن بعض السجايا والقوى الشخصية المميزة للرجل ،دفعت به بعيدا عن الإفادة من مهاراته ومنجزاته الشخصية الخاصة،ذلك أنه غدا متمردا ثم ثوريا"[4].

ومن ملامح تكوينه النفسي ،أنه كان متسائلا دوما وإنساناً دائم التساؤل هو إنسان دائم التطور والتجدد لا يقف أو يتجمد عند مرحلة معينة، وفي نهاية كتابه الأول يكتب قائلا:" ..صلاتي الأخيرة، اجعلني ذلك الرجل الذي يتساءل دائما"[5]

(1) Ibid., P.64.
(2) David Macey, **Frantz Fanon : Abiografy** (N.Y.: Picador Press , 2000) P.12.
(٣) فانون، معذبو الأرض م س ذ، ص ٢٩٨.
(4) David Caute, Op.cit., P.8.
(5) Idem.

ويلمس الميلي في فانون هذه الروح المتسائلة فيكتب "...كانت بداية خرج بها فانون من التساؤل الأصغر إلى التساؤل الأكبر ومن التساؤل عن مصير الإنسان الفرد إلى التساؤل عن مصير الوطن "[1] هو إذن إنسان دائم التطور والتجدد.

ومن اختيارات فانون في الحياة وممارساته العملية ترصد الكتاب عددا من المواقف الدالة على سماته الشخصية وتكوينه النفسي...ومنها

تطوعه للقتال ضد الفاشية والنازية ،وهذه مسألة بالغة الأهمية يتوقف عندها الباحث ،ليرى أمامه فتى في السابعة عشرة من عمره يذهب بعيدا عن وطنه للقتال طواعية إلى جانب قضية يقتنع بعدالتها، و إنسانٌ بهذا التكوين ،تتملكه نزعة فطرية تدفع به إلى الوقوف بجانب قضية من قضايا العدل والحرية(حيث تنتفي أية دوافع أخرى) لابد أنه يمتلك نزعة إنسانية قوية وهي نفسها التي ستقود خطواته المقبلة المعززة بثقافة واسعة وبخبراته العملية ، مما حدا بالبعض أن يعتبره "مناضلاً أمميا يعشق الحرية ويقدس العدالة ويقف إلى جانب المضطهدين أينما كانوا[2].

وتكتب عنه " Marcel Uwineza SJ " : أنه يعتقد أن الإنسان إذا كان قدره أن يعيش أو يموت ،فيجب أن يكون ذلك من أجل قضية، وهو مقتنع بأن الإنسان يجب أن يقبل خطر الموت من أجل ولادة الحرية"[3].

خطاب استقالته من عمله بمستشفي بليدة بالجزائر، وخطاب الاستقالة هذا، وثيقة كافية للدلالة على أي طراز من الرجال كان هو ومما جاء في هذا الخطاب: "منذ شهور عديدة وضميري مقر لنقاش حاد. وخلاصة ذلك النقاش هو التصميم على عدم اليأس من الإنسان، أي عدم اليأس من نفسي، ولذلك صممت على أن لا أتحمل مسؤولية موقف سلبي يقتنع بأن لا مكان لأي غمل"[4].

فحينما عايش فانون واقع المرضى المحزن وتوصل إلى قناعة باستحالة أدائه لوظيفته كما يراها هو قدم استقالته، ذلك يعنى كم هو صادق مع نفسه، ويعنى أيضا

(١) محمد الميلي، م س ذ، ص ١٢٠.
(٢) محمد الميلي، م س ذ، ص ٤٣.
(3) SJ Marcel Uwineza SJ, **Zimbabwe: the Prophetic Voice of Frantz Fanon**
http://www.thinkingfaith.org/articles/20080623
(4) Fanon, Frantz, Haakon Chevalier (Translator), **Towards The Afrivan Revolution** (N.Y.: Grove Press,1988) P.54.

أنه لا يعرف المواقف المترددة وأنه يقرن الفكر بالعمل. ويعزز من مصداقية هذا التقييم انضمامه اللاحق للثورة الجزائرية ، والذي يجسد بدوره كل صفات وخصائص فانون النفسية والفكرية،ومن جذرية في السلوك وقدرة على اتخاذ أخطر القرارات و التجدد والتطور.

**تعامله مع المرض**

ودائما محنة المرض والألم كاشفة لجوهر الإنسان وخصائصه، فماذا والمرض لا أمل في الشفاء منه، فقد واجه فانون هذه المحنة بشجاعة، وبرغم نصح قيادة جبهة التحرير الوطني الجزائري له بالراحة والتماس العلاج إلا أن إجابته كانت دائما طالما كانت الجزائر مستمرة في نضالها، فلن أوقف نشاطي وأستمر في نشاطي حتى يومي الأخير "[1].

وفي خطاب أرسله لأحد أصدقائه في صيف ١٩٦١ ": لقد علمت أن لدى ثلاثة أعوام أو أربعة أخرى أعيشها ولهذا أصبح من الضروري أن أسارع إلى قول وعمل أقصى ما أستطيع "[2] ، ولهذا نجد فانون وقد بذل جهداً مكثفا للانتهاء من مؤلفه الهام (معذبو الأرض) ، لاستشعاره المسؤولية عن هذا العمل المهم ، والذي يعتبره البعض إنجيل المضطهدين ، وبالفعل انتهى من كتابة مؤلفه، وتم نشره قبل أيام من وفاته، هذه القدرة على الإنجاز ، وفي مثل ظروف كهذه ، تنبئ عن درجة عالية من الإخلاص للهدف والقضية التي كرس نفسه لها، وتنبئ أيضا عن روح جسورة لا تنكسر أمام هاجس الخوف من الموت ولا يقضي عليها إلا الموت نفسه، فقبل وفاته بأربعة أسابيع كتب لصديق له: " روجر ...ما أريد أن أقوله، هو أن الموت يلازمنا دائما فليست المسألة هي كيف نهرب منه ولكنها ما إذا كنا قد حققنا أقصى ما نستطيع للأفكار التي عملنا من أجلها، والذي يهزني حقيقة في سرير مرضي ليس حقيقة أنى سأموت ولكن أن أموت بمرض اللوكيميا في واشنطون، بينما كان يمكن أن أموت منذ ثلاثة أشهر في مواجهة مع العدو،...نحن لسنا شيئا يذكر على هذه الأرض إذا لم نكن في المقام الأول عبيدا لقضية، قضية الناس، قضية العدل والحرية، أريدك أن

(1) David Macey, **Op.cit.**, P.3-4.
(2) David Caute, **Op.cit.**, P.65.

تعرف أنه برغم إحباطات الأطباء والظلمة المتجمعة، أنى مازلت أفكر في الناس الجزائريين، في ناس العالم الثالث، وأن كل ما قمت به كان من أجلهم "[1].

هذا النص ويدون حاجة إلى تعليق يكفي بكلماته المشحونة بالمضامين والدلالات ليكون دليلا على طبيعة التكوين النفسي لفانون.

obeikandl.com

(1) Renate Zahar. **Op.cit.**, P.XX.